وليد نجم

يا حسافا *

يا حسافا

بالامس اصبحت اسيرا للقلق .. سارت قدماي حيث يسير الطريق ووجدت نفسي مسمرا فوق كرسي في مقهى . لم يكن المقهى الوحيد في بلدتي ، ولكنه يشابه الى حد كبير مع المقاهي الاخرى في جوها .

في المقهى رجال يجترون زمنهم بين اصوات احجار طاوله الزهر ، وبين التنهدات على ورقة نعب تاخرت ، ففتح احدهم ، وراح يزفو بهدا الفتح المبين ..

ولاني لا اريد ان اتذكر ، فتحت الكوى المقفلة في اعماقي،ورحت ارقب حركاتهم ، وانا اغوص في بحر من الالم يشبه بحر الدم في تلك المسرحية التي رأيتها في بلد اجنبي ، وشعرت وكانها كتبت من اجلي . ولاني فتحت الكوى . تسرب اليها شيء يشبه النغم ، لكنه يختلف عنه بالايقاع . كان صوت مطرب ضعيف لا املك الا ان اسمه اغنية حزينة مطلعها (يا حسافا) ..

علقت سمعي على صوته ، فصحح قلبي ، وتركته هو الاخر معلقا على صوت المطرب . كان المقطع الاول من الاغنية كافيا لتعجير الذكرى في راسي ، لذا اردت ان اهرب من داخلي .

اين اتجه ؟ لا ادري ..

كل ما ادريه انها ليست معي لكنها موجودة ..

خرجت من المقهى وسار بي الطريق الذي يحمل بقايا الرجال الذين لم تسعهم المقاهي ، فيسيرون معه ، ولا يدرون اين يسير.. على جانبيه خمارات صغيرة ، تنبعث منها رائحة تشبه رائحة الموت، ودون وعي وجدت نفسي في احداها .

جلست على طاولة صغيرة ، فعاجلني الساقي بما تيسر من المياه التي تفقد الذاكرة .

ولاني وحيد ، فقد تخلصت من النقاش في السياسة : وتركت مساحة كبيرة من الوعي لتلتقط الاغنية التي تلاحقني ..

ومن جديد عادت ((يا حسافا)) ، وعاد صوت مطربها .. كان يبكي على نبع الريحان الذي سقاه ، فاكتشف بعد فوات الاوان عقم زرعه ، فراح ينشد :

(جنت احسبك نبع ريحان واسقيتك
يا حسافا .. يا حسافا ..)

شعرت بحاجتي للبكاء .. عشرات الاسباب ، ولدت تلك الحاجة في اعماقي.اخرجت منديلي ، ثم افلت رغبتي ، لكن كبريائي منعتني..

ما هذا الزمان ؟ حتى عيوني اصبحت تخونني !

اريد ان ابكي ، لكن منابع الدمع اقفلت .. لا استطيع ان افهم كيف يزود الدمع على الاموات ؟ بينما يمتنع على الاحياء ؟

انا الان في اشد الشوق لرؤية احد اصدقائي القدماء ، يا حسافا لقد ندمت لاني الغيت موعدي معه ، دون سبب .

ولكن لماذا لا يكون هذا الجمع القاعد في الخمارة اصدقاء لي ؟ ساجرب .

لا .. لن اجرب .. اخاف ان تكون النتيجة يا حسافا .. احس الان بضعفي ، فانا رجل منهوك القوى ، فاقد الذاكرة .

لا بد من التاكد من صورتي .. ان المرآة المتصدرة واجهة الخمارة تشوهها ، ليست هذه صورتي الحقيقية ، اردت ان احدق فيها ، لكني خفت .. لقد خفت على وجهي ، فتراجعت مذعورا وصوت المطرب يلاحقني :

(يا حسافا .. يا حسافا ..

تركت الخمارة وتوجهت الى بيتي علني انال قسطا من الطمانينة، اندسست في فراشي ، فاخذ الفراش يدور بي .. اردت ان اوقف حركة دورانه ، فتذكرت ذاكرتي ، ولما كدت التقط اطرافها ، حتى شعرت بهموم العسر تراكم في سراديبها ..

لا بد ان في داخلي هزيمة ، لكني لست مسؤولا عنها ..

وكان لا بد من معالجتها بانتصار باهر .. لذا ادرت آلة التسجيل على اغنية يا حسافا ، فبدات الهزيمة تتقلص في داخلي ، وبدا مدها يتراجع خاصة عندما وصل المطرب الى المقطع الذي يقول فيه :

(بهدم الحلم اللي بنيته
بقطع الهرش اللي رويته
يا حسافا .. !!)

خدرني انتصاري الوهمي ، فاستعدت قليلا من توازني ، وزاح بخار الخمر يفر من رأسي .

تحسست جسدي ، ثم نفضت عنه بعض غبار الذعر المتراكم على سطحه ، وقررت ان اكتب شيئا .

لمن اكتب ؟

لها : انهم لم يعلموها فك الحروف ، لذا بقيت مقتنعة بما يجري ..

له : انه يعكس حروفي دائما .

لي : لا بأس ، فالواحد منا يجب ان يتاكد من رأسه عدة مرات في اليوم الواحد .

من عادتي ان لا اضع العنوان مسبقا ، تكنه فرض نفسه على اوراقي هذه المرة !

(يا حسافا)

عنوان مثير ، رغم كآبته ، لابد من تغييره ..

(بهدم الحلم اللي بنيته
تقطع الهرش اللي رويته
نسيت عمري ، وما نسيتك
آخ .. يا حسافا ..)

كيف اغيره وهو يلاحقني بصوت مطربه :

(أريد أنشد ، واخاف من لومة اللايم
صبحت هايم ، وانا اللي طول عمري جنت هايم)

صوت المطرب يعذبني ببكائه المحرق ، لذا قررت اسكاته .

اريد ان اكتب ، لكنني اخاف من لومة اللائم ؟

مزقت الورقة التي لا تحوي غير العنوان ، فعاد الرعب يزحف الى داخلي .

معذرة . الى اي حد يستطيع الانسان ان يعيش مع الرعب ؟

جلست افكر . الساعة الان هي الحادية عشرة ليلا ، ومذيع احدى المحطات الاذاعية يستعد لتلاوة نشرة الاخبار .

اسكتت صوته هو الاخر ، لانه لا يخاطبني ، فكلانا يعرف سر المهنة ..!!

لبست ثيابي على عجل وقررت ان اخنق الساعة الباقية من اليوم ، خرجت للشارع ، فعاد الطريق يسير بي كعادته ، فاستقر بي المطاف في الخمارة .

---

* عنوان القصة هو عنوان لاغنية عراقية ، تبدأ بيا حسافا ، وتنتهي بها ، ((ويا حسافا)) تعني يا حسرتا !

فررت ان اواجه الامور بجرأة . فطلبت بطحتين في آن واحد.
(بامر الحكومة يغلق المحل في الساعة الحادية عشرة والنصف ليلا)
ورغم انه بقي من الوقت حوالي ثلث الساعة ، الا ان اغلب الحاضرين انصاعوا لامر الحكومة ، وبدأو يغادرون المحل ، وكان السكر لم يبق في داخلهم سوى الرغبة للنوم ..

والاغرب من ذلك ان مطرب « يا حسافا » ، راح هو الاخر يعجل في ادائه لينهي اغنيته قبل الحادية عشرة والنصف ، وترك كورسه ينشد مسرعا :

(أردْ ردود ردود ، واسولف بيك
وافرح من يمر طاريكْ ..
يا حسافا .. يا حسافا ..)
هل استطيع وحدي .. ؟ أبدا

شربت مسرعا ، وكان صاحب الخمارة كريما معي حيث مدد لي الوقت عشر دقائق لضيفها في ثرثرة جادة مع عماله الذين ينظفون المحل.

خرجت من الخمارة .. فكان الشارع لا يسير بي ، هذه المرة انا الذي اسيره .

الشارع خال ، سوى من بعض السكارى ، كان باستطاعتي ان احركه كما اشاء . أجعل عمارة كاملة تميل حتى تلامس الارض ، ثم اعيدها لوضعها ، وارفع كوخا حقيرا حتى يلامس السماء ، ثم اعيده لوضعه .

شيء مهم ان تملك العالم .. لكن الاهم ان يبقى لك ولكن .. يا حسافا .. !!

المدينة نائمة ، رجالها نائمون ، حجارتها نائمة ، اشجارها نائمة ، وفراتها نائم ، فتله النسل لذا راح يجر نفسه كشيخ عجوز ، افقدته الايام نعمة السمع والبصر ..

السكارى وحدهم المستيقظون ، وتكن ما فيهم أفراس بمنتهى مخدر .. ما ابشع المدينة عندما تنام .. انها لا توحي بالطمأنينة ..

ودون سابق انذار صدني عمود كهربائي ، فتمتمت محتجا :

(يلعن ابو يارتغ)

تلفت حولي فلم ابصر احدا ، وماذا يهم ؟ أسوأ الاحتمالات ان يسمع الشرطي شتيمتي .. انه لن يحاسبني ، فانا رجل مخمور ، واذا لم يصدق ، بامكانه ان يشم رائحة فمي .

سرت قليلا ، فشعرت برغبة قوية تقودني للنوم . اخترت مكانا مناسبا قرب حافة النهر ، ونمددت قليلا .

لامس الهواء وجهي ، فقاومه نومي ، وكرر الهواء فعله ، وكرر نومي مقاومته . ورحت اتفرج على هذه المعركة التي لم اكن طرفا بها رغم انها تخصني .

حسم نور الشمس الموقف . فشعرت بالخجل الذي بعثني . رجل بطولي وعرضي ينمدد كدابة ميتة على حافة النهر ..

شيء مخجل عندما يكتشف الواحد منا حقيقته التي يخفيها الليل .. رششت بعض الماء على وجهي ، واصلحت من هندامي .. ثم سرت في الطريق .. الذي عاد يسير بي ، والذي فاتني لمهمتي .. كنت اعتقد اني الزبون الاول الذي يدخله في هذا الصباح المبكر ، وكانت دهشتي عندما اكتشفت رجالا غيري يسألون (بدق من الورق) اقترب عامل المقهى وسألني :

شاي والا قهوة ؟

عامل المقهى يخيرني ، شيء يعود الى الالم .. فمنذ ولدت لم يخبرني احد بما يجب أن أفعله ، عادة اخير بما يجب ان افعله ، بعد ان انهي عملي .

ـ هات قهوة حلوة .

احضر العامل القهوة ، وجلس جواري بعد أن مسح المقهى بنظرة ليتأكد من ان صاحبه لم يصل بعد .

كنت المح في عينيه مليون سؤال هام ، لكنه سألني تافها :

ـ هل صحيح ان الحكومة سوف تقيم نصبا تذكاريا في الساحة العامة ؟

حدقت في وجهه مغفلا ، فبدا لي يقول :

ـ اللهم وفق الحكومة يا رب ..

خفضت بصري عنه ، ثم ناولته ثمن القهوة ، وانصرفت .

لا فائدة من التكرار ، فالجميع يهربون من الكلام ، عندما تصل درجة حرارته الى ٣٧ر٦ درجة مئوية .

ـ صباح الخير يا ابا جورج ، يبدو انك سهرت حتى الصباح في خمارتك ؟

ـ انا ؟ استغفر الله ، لقد اغلقتها في الساعة الحادية عشرة والنصف تماما ، ثم ذهبت لداري ونمت ..

يا نطيف .. النوم الطويل يكسر الاضلاع ، استغرب كيف يصبر الناس عليه ، والله لقد افقت في الرابعة صباحا .. الا اشرب كاسا صغيرة على الريق ؟

ـ سوف اجرب ، ما رأيك باحضار (بطحة) يا ابا جورج ؟

احضر لي طلبي ، وشربت اول جرعة ، وشعرت وكأنني اشرب للمرة الاولى في حياتي .. ثم شربت الجرعة الثانية ، فتفجرت الشتائم من حنجرتي ، وابو جورج ينتظرني غير مصدق ..

اخذت ابحث عن المرآة في خمارته ، فوجدتها . قمت اليها غير خائف ، وتأملت وجهي ، ان وجهي هو وجهي .. لم يتغير مطلقا.. شيء وحيد ازداد فيه يتعلق بكثرة الخطوط التي بدأت تأسر جبهتي ... عدت الى مكاني ، وشربت على عجل ..

ـ كيف تقول يا أبا جورج ان الشرب على الريق لا يؤذي ؟ انت الاخر تغشني .. يا حسافا ..

لم يجب ، انما توجه الى آلة التسجيل وراح يسمعني اغنية « يا حسافا » .

كان لا بد من تقييد حركتي ، فالاغنية اصبحت تثيرني لدرجة التمزق . تناولت اخر ما بقي في الكأس . فوصل المطرب الى المقطع الذي يقول :

(واقولن يا حسافا يروح نايها
وجنت انت اللي تسليها وداويها)

ـ هات بطحة اخرى يا ابا جورج ، وارفع صوت التسجيل .

(أردْ ردود ردود ، واسولف بيك
وافرح من يمرْ طاريك
آخ .. يا حسافا ..)

راح ابو جورج يردد مع المغني هذه المقاطع ، فصرخت قائلا :

ـ اسمعك انت أم هو ؟

سكت المسكين تاركا المغني ينشد وحده :

(لو جنت حبيتكْ يوم
وانسيتكْ .. يا حسافا ..)

بدا رأسي يتصدع ، لكن نهاية الاغنية امسكت انهياره :

(تبعثرْ أيام العمر
تدمرْ أيام العمر
يا حسافا ..)

انتهت الاغنية ، لكن الشتائم المحبوسة في داخلي لم تنته .

شتمت كل شيء .. وفجأة عذرت كل شيء ..

كيف يتحرك الاخرون من اجلي ، وانا اقضي نصف عمري مخدرا في المقهى ، ونصفه الاخر مخدرا ما بين النوم والخمارات انهم لا يتحركون الا اذا تحركت .

انا رجل مخمور ، وهم كذلك ..

كلانا نبدأ نهارنا بيا حسافا .. وكذلك ننهيه ...

دمشق